Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 6, No. 4 **ISSN: 2788-6026**
Doi: 10.54720/bajhss/2024.060406 **Pages: 64-72**

الجوانب الاقتصادية في كتاب تاريخ بخارى للنرشخي (348هـ/959م)

م. د. ماجد حياب سمير
وزارة التربية العراقية، مديرية تربية البصرة، البصرة، 61001، العراق.
Majid11972@yahoo.com

الملخص

يعتبر الاقتصاد جانباً أساسياً في أي مجتمع، ويلعب دوراً حاسماً في تحديد مستوى التطور في ذلك المجتمع، وهناك العديد من العوامل التي تؤثر على الاقتصاد، وفهمها أمر حاسم في تعزيز النمو الاقتصادي. بخارى هي مدينة في أوزبكستان لها تاريخ غني في التنمية الاقتصادية، تأسست مدينة بخارى كمركز تجاري بين الشرق والغرب، فضلا عن موقعها المميز بالنسبة إلى بلاد ما وراء النهر سمح موقع المدينة الواقع على طريق الحرير القديم بأن تصبح مركزًا لتبادل السلع مثل الحرير والتوابل والأحجار الكريمة وغيرها بالإضافة إلى تنوع محاصيلها الزراعية ومن منتجاتها الحيوانية ومهارة سكانها وحذاقتهم جعلها تتصدر مدن بلاد ما وراء النهر بالناحية الاقتصادية وأصبحت محل اهتمام الكتاب والمؤرخين.

الكلمات المفتاحية: بخارى، تجارة، مدينة، أسواق، اقتصاد.

Economic Aspects in the History of Bukhara by Al-Narshikhi (348 AH / 959 AD)

Lect. Dr. Majid Hayyab Samir
Iraqi Ministry of Education, Basra Education Directorate, Basra, 61001, Iraq.
Majid11972@yahoo.com

Abstract

The economy is an essential aspect of any society and plays a crucial role in determining the level of development in that society. There are many factors, that affect the economy, and understanding them is crucial in promoting economic growth. Bukhara is a city in Uzbekistan with a rich history of economic development. The city of Bukhara was established as a trading center between the East and the West, and its distinguished location relative to Transoxiana. The city's location on the ancient Silk Road allowed it to become a center for the exchange of goods such as silk, spices, precious stones, and others. In addition to the diversity of its agricultural crops and animal products, the skill and cleverness of its residents made it the forefront of Transoxiana cities in terms of economy and became the focus of writers and historians.

Keywords: Bukhara, trade, city, markets, economy

Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 6, No. 4 **ISSN: 2788-6026**
Doi: 10.54720/bajhss/2024.060406 **Pages: 64-72**

المقدمة

شهدت مدينة بخارى عبر التاريخ تطورا ملحوظا في الناحية الاقتصادية والتجارية وكان لموقعها الجغرافي والاستراتيجي الأثر الكبير في ذلك النمو التجاري حيث أن الجانب الاقتصادي هو عنصر حاسم في تنمية أي مجتمع ونموه، ويلعب القطاع الاقتصادي دورًا أساسيًا في توفير السلع والخدمات، وخلق فرص العمل، وتعزيز الابتكار وريادة الأعمال.

اعتمد اقتصاد بخارى على الزراعة والصناعة، فقد كانت هنالك مجموعة من المحاصيل التي تزرع في المدينة وحولها ومنتجات حيوانية أدت إلى ظهور العديد من الصناعات في تلك المدينة وكان أبرزها صناعة المنسوجات القطنية التي اشتهرت بها مدينة بخارى عبر التاريخ وضاهت هذه المنسوجات نظائرها في كافة البلدان فكان يرفع منها البسط وسجاجيد الصلاة والثياب الفاخرة كما جلب ظهور الإسلام في القرن السابع المزيد من الازدهار إلى مدينة بخارى، حيث أصبحت حاضرة السامانيين ومركزًا دينيًا ووجهة للتجار، فاستمرت ثروة المدينة ومكانتها في النمو تحت حكم السامانيين، الذين حكموا بخارى من القرن التاسع إلى القرن العاشر، وأدت رعاية السامانيين للفنون والعلوم إلى ازدهار الثقافة في بخارى، والتي جذبت العلماء والحرفيين من جميع أنحاء العالم الإسلام في الختام، لعب إنشاء بخارى كمركز تجاري دورًا محوريًا في تاريخ المدينة، ولا يزال إرثها محسوسًا حتى يومنا هذا، ويواصل تاريخها الغني وتراثها الثقافي جذب الزوار من جميع أنحاء العالم.

وقد قسمت البحث الى ثلاث مباحث تسبقها مقدمه وتلحقها خاتمه حيث تضمن المبحث الأول:

- نبذه عن كتاب تاريخ بخارى للنرشخي
- الزراعة
- أنواع المحاصيل الزراعية
- التجارة

أما المبحث الثاني فكان عن:

- السلع التجارية
- الصادرات
- الواردات
- الصناعات

والمبحث الثالث احتوى على:

- الطرق التجارية
- الأسواق
- التعاملات النقدية
- الصيرفة

المبحث الأول

نبذة عن كتاب تاريخ بخارى للنرشخي

يعد كتاب تاريخ بخارى أو أخبار بخارى الذي إلفه المؤرخ أبو بكر محمد بن جعفر النرشـــخي بطلب من ألأمير الســـاماني الحمير أبي محمد نوح بن نصـــر بن احمد ســـنة (322ه/943م) مصـــدر من مصـــادر التاريخ لمدينة بخارى وقد نال اهتمام العديد من المؤرخين فترجم إلى الفارسـية على يد أبي نصـر احمد بن نصـر القباوي بعد أن حذف فيه ما كان فضـولا محلا وزاد عليه ما ارتآه نافعاً مفيداً من كتب أخرى مثل كتاب خزائن العلوم لأبي الحسن عبد الرحمن بن محمد النيسابوري وتاريخ بخارى لأبي عبد الله محمد بن احمد البخاري الفنجاري.

ولخص هذه الترجمة محمد بن زامبر بن عمر وانتهى من هذا التلخيص سنة (574ه/1178م) وقدمها إلى حاكم بخارى برهان الدين عبد العزيز بن مازة. ويبدو إن هنالك زيادة على تلخيص محمد بن زفر لان معلومات الكتاب والأحداث التأريخية سبقت من حيث

التاريخ ملخص بن زفر وامتدت الى ظهور المغول وسيطرة جنكيز خان على بخارى، وفي وقت لاقت نال هذا التلخيص اهتمام الكبير من المؤرخين إذ ترجم إلى العديد من اللغات منها اللغة العربية كذلك اهتم المستشرقون بها وترجم الى اللغة الروسية على يد المستشرف الروسي ليكسهن وطبع باللغة الروسية كما طبع مع العديد من المصنفات ألأخرى باللغة الفارسية واعتمد عليه في مؤلفاتهم العديد من المؤرخين، مثال بارتولد حيث اشتفى الكثير من معلوماته منه في مؤلفة تركستان [1].

وقد ضم في طياته العديد من المعلومات والإخبار القيمة عن مدينة بخارى في تلك الحقبة التاريخية منها ما هو سياسي ومنها ما هو اجتماعي وديني وما هو اقتصادي ونظرا للدور الاقتصادي المميز الذي لعبته مدينة بخارى بفعل موقعها الجغرافي الذي يربط بين العديد من البلدان لاسيما البلدان التجارية مثل الصين والهند ووقوعها على طريق الحرير القديم اكسبها شهرة تجارية بارزة فضلا عن مناخها المعتدل ووفرة المياه الصالحة للزراعة جعلها مدينة عامرة مزدهرة بالعديد من المزروعات. وكذلك مهارة سكانها وإتقانهم للعديد من الحرف اليدوية، جعلها مركزا صناعيا للكثير من الصناعات مما أنعش أسواقها بالكثير من السلع التجارية ذات الجودة العالية التي جذبت تجار المدن من شتى بقاع المعمورة للتجارة والتبضع.

هذه الجوانب جعلتنا نأخذ على عاتقنا دراسة الجوانب الاقتصادية من خلال كتاب تاريخ بخارى للنرشخي أملين أن نلم بالمعلومات المفيدة للقارئ ومن الله التوفيق.

الزراعة

لعب النشاط الزراعي دورا مهما في حياة شعوب بلاد ما وراء النهر فكان مصدرا من مصادر الدخل للعديد من السكان. وذلك بسبب خصوبة أرضها ووفرة مياهها لأنها كانت تتمتع بكثرة الأنهار الجارية، مما أدى الى نمو المزروعات بمختلف أنواعها فذكرها ابن بطوطة أثناء مسيرته الى بخارى بأنه كان يسير بين بساتين متصلة وأشجار كثيفة وانهار متفرقة مسيرة يوما كاملا حتى دخل مدينة بخارى [2]. وقلما تخلو بيوت تلك المنطقة الجغرافية من بستان وماء جار حتى إذا أشرفت على تلك الأراضي من اعلى نقطة في المدينة لم تر الأبنية في المدينة لتشابك أشجارها وامتداد بساتينها [3]. فهي احدى جنات الدنيا، وهي أطيب ارض الله، كثيرة الأشجار متجارية الأطيار عزيزة الأنهار [4]. وكانت هذه البساتين والمزروعات ذات عوائد مالية كبيرة تعود على مستعمريها فيذكر النرشخي أن ضياع أبي إسحاق بن إبراهيم، تقدر بعشرين ألف درهم في كل عام [5].

وعلى الرغم من حجم الواردات الكبيرة من الغلات الزراعية ألا أن المبلغ ربما كان يفوق العشرين ألف لأن الأمير إسماعيل احمد، انتزع هذه الضياع من يد أبي إسحاق وامر بإعطائه عشرين الف درهم مقابل التخلي عن هذه الأرض الخصبة وصيرها أملاكا سلطانية تحت أشراف وإدارة السلطة الحاكمة، مما يتضح حجم الواردات الكبيرة العائد من تلك الأراضي [5].

أنواع المحاصيل الزراعية:

بسبب تنوع المناخ واعتداله، ووفرة المياه، تنوعت تبعا لذلك المحاصيل الزراعية تنوعا ملحوظا من خضروات وفواكه وثمار، ضاهت هذه الثمار نظيرتها من ثمار البلدان الأخرى، فقد فاق بطيخ بخارى جميع بطيخ بلاد الدنيا شرقا وغربا من شدة حلاوته [2]. فضلا عن أشجار الفاكهة المتنوعة الأخرى من كمثري ولوز وبندق وكريز وأعناب، فكانت أشجار الفاكهة متشابكة كأنها السرادقات بحيث لم تنفذ من خلالها أشعة الشمس من كثرة كثافتها حتى بالغ النرشخي بوصف أشجار الفاكهة الموجودة ببخارى بأنها (كفاكه الجنة) فكانت في غاية الحسن واللطف، فكانت فاكهة بخارى اصح وألذ طعم من بقية فاكهة بلاد ما وراء النهر [5]، [6].

كذلك كانت زراعة القطن، الصفة البارزة لمنتوجات بخارى الزراعية حيث كانت المصنوعات القطنية ذات الصفة التجارية ومن أجود أنواع المنسوجات في العالم فكان تحمل الى جميع البلدان، لجودة خيوطها، ومهارة صناعها، وارتفاع أثمانها، ونظرا لانتشار زراعة القطن وإتقانها صناعته عرفت هذه الثياب بأسماء المدن التي تصنع فيها فمثلا الثياب البخارية نسبة الى مدينة بخارى [7]، وكذلك الزندنجي نسبة الى مدينة زندنه التي تنسج فيها هذه الثياب [5].

التجارة

احتلت مدينة بخارى أهمية تجارية كبيرة عبر التاريخ نظرا لموقعها الجغرافي الذي يربط بين العديد من المراكز التجارية فضلا عن وقوعها في طريق الحرير القديم الذي يربط بين الصين والبلاد الإسلامية. أن الموقع المميز لبلاد ما وراء النهر بصورة عامة وبخارى بصورة خاصة جعلها محط أنظار الكثير من الدول نظرا لأهمية هذا الموقع التجاري كونه يقع بين ثلاث قوى هي بلاد

فارس، والصين، والهند التي كان لها تأثير حضاري كبير فانتعشت أسواقها بالبضائع المتنوعة إلى جانب ذلك فان موقعها الاستراتيجي وتنوع مواردها المائية وموقعها على طريق الحرير القديم جعلها نقطة خلاف بين بلاد فارس، والصين للسيطرة على عليها إضافة إلى اشتغال اغلب سكانها بالتجارة حتى أصبحت مصدر ثرائهم كما قال النرشخي عندما كان يتحدث عن مدينة اسلجكت [5].

فضلا عن أن اغلب سكان مدينة بيكند تجار فعندما ساءت أوضاعهم خلال فتح المدينة من قبل قتيبة من مسلم ذهب جميع أهلها الى الصين لارتباطهم بعلاقات تجارية وطيدة [5]، لذلك عرفت بيكند بمدينة التجار [8]، أضف إلى هذا فقد لعبت بخارى دور الوسيط في عملية التبادل التجاري بفضل موقعها الجغرافي المميز، ولا ننسى اهتمام الولاة والسلاطين بالنشاط الاقتصادي اهتماما بالغا كونها تشمل العمود الفقري لحياة السكان وحجر الزاوية في إرساء دعائم ملكهم ومن خلال دعم هذا النشاط التجاري عن طريق تامين الطرق التجارية والقضاء على قطاع الطرق واللصوص وقطاع الطرق [5]، مما ساعد على تدفق السلع التجارية من سائر البلاد الى مدينة بخارى إضافة إلى أنشاء الكثير من الخانات على الطرق التجارية لإيواء التجار وتوفير جميع وسائل الراحة لهم [6].

المبحث الثاني

السلع التجارية

كانت بخارى مركزا تجاريا عظيما تأتي إليها البضائع من جميع الولايات القريب أو البعيد منها وتصدر منها الى جميع بلدان العالم، لأنها لعبت الدور الوسيط في العمليات التجارية وهناك سلع خاصة كانت تنتج من مدن بخارى، عبارة عن منتجات زراعية، أو حيوانية، أو مواد صناعية، تحمل الى جميع بلدان العالم فلكل مدينة أو بلد سلع تجارية خاصة قد تختلف في كثير من الأحيان مع المدن الأخرى، وذلك وفقا إلى اختلاف المناخ وتنوع الموارد الطبيعية في منطقة عن الأخرى، فضلا عن تنوع المهارات لدى السكان، مما جعل هنالك اختلاف، وتنوع في السلع التجارة من مدينة عن الأخرى، وسوف نشير إلى هذه السلع الصادرة والواردة بالتفصيل.

الصادرات

احتلت المنسوجات القطنية مركز الصدارة في قائمة صادرات بخارى فهي المادة الأساسية التي كانت تصدرها بخارى إلى جميع البلدان فقد امتاز سوق زندنه بإنتاج (الزندنيجي) أو الكرباسي، والذي ينسج في كثير من قرى بخارى، ويحمل من ذلك المنسوج إلى جميع الولايات مثل العراق وفارس وكرمان والهند وغيرها حيث يتخذ منه جميع الملوك والعظماء ثيابا لأنه من افخر أنواع المنسوجات، ويشترونه بثمن الديباج [5]. ويصف ياقوت هذه الثياب الزندنجية بأنها ثياب مشهورة [3]، وثياب تعرف بالبخارية وهي كرابيس ثقال الأوزان غليظة السلك مبرومة الغزل يرغب فيها العرب [1]، وكانت تنسج بها البسط والسرادقات واليزديات، والوسائد وسجاجيد الصلاة والبرود الفندقية من اجل الخليفة، ويذكر النرشخي أن في كل عام يأتي من بغداد عامل خاص يأخذ من هذه الثياب ما يقابل خراج بخارى [5]. وكانت كرمينة احدى قرى بخارى تصدير المناديل الورقية، إضافة إلى المنسوجات وغيرها، فان أسواق بخارى شهدت نوعا أخر من السلع التجارية، فقد كان يباع ويشترى من أسواق بخارى الرقيق والمواشي وغير ذلك مما يتسع به أهلها، [6].

أما عن حاصلات بخارى الأخرى، وخصوصا المنتجات الزراعية فكانت بخارى تصدر البطيخ الذي يعتبر لا نظير له في بلاد الدنيا شرقا وغربا وكان البطيخ يحمل من بخارى الى سائر البلاد، [2]. فضلا عن تصدير الماشية والرقيق الذي كان ينقل الى سائر البلاد خاصة الفرس ثم الى غرب العالم الإسلامي حيث كانت سمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر وخير الرقيق تربية سمرقند [6]، عندما كانت سمرقند مركزا للتجارة ألا أنها فقدت مكانتها التجارية عندما نقل السامانيون مركز حكمهم الى بخارى وأصبحت بخارى حاضرة بلاد ما وراء النهر فراجت تجارة الرقيق مع بلاد الترك فيذكر إن رقيق بلاد الترك لم يكن له نظير في جميع البلدان ولا يدانيه في القيمة والحسن جميع رقيق الأرض [6]، أن وجود أسواق للرقيق في مدينة بخارى اشارة الى رواج هذه التجارة حيث أصبحت مصدرا من مصادر الثراء للعديد من التجار العاملين فيها. وكان التجار يأتون من جميع الولايات للتجارة.

وكذلك كان للمعادن حصة كبيرة في مبيعات بخارى في أسواقها فقد ذكر ابن حوقل أن الصفر والنحاس والأواني وأسباب القنية مما يتسع به أهلها ويرتفع من بخارى ونواحيها فيحمل الى العراق وسائر البقاع، فضلا عن الذهب والفضة وصدرت المناديل من كرمينية [1]. ولعل أقدم لائحة لصادرات بخارى أوردها لنا المقدسي فذكر أهم تجارة بخارى من (الثياب الرخوة والمصليات والبسط الفندقية وصفر المنابر والطبري وحزم الخيل تنسج في المحابس والثياب الاشمونية والشحم وجلود الضأن ودهن الراس) ويذكر أيضا جنس بطيخ لهم يسمى الساف [9].

الواردات:

تعتبر الواردات هي المنتجات والخدمات التي تستوردها مدينة ما من مدينة أخرى، وتتمثل هذه المنتجات من السلع، والمواد الخام، والمعدات، والآلات، والمنتجات النهائية، وتنقسم الواردات إلى نوعين رئيسيين، الواردات الرئيسة والواردات الثانوية. وتشمل الرئيسة السلع الأساسية التي يحتاجها السكان لتلبية احتياجاتهم الأساسية مثل الغذاء والوقود، بالإضافة إلى السلع الخام، والمعدات والآلات اللازمة لتطوير الصناعات المختلفة. بينما تشمل الواردات الثانوية السلع الفاخرة والمنتجات الفنية والمشغولات اليدوية وغيره.

ولعل أولى واردات بخارى في عملياتها التجارية هي تجارة الرقيق حيث اشتهرت بخارى بهذا النوع من التجارة على الرغم أن الرقيق كان يأتي من بلاد الترك المجاورة ويباع بأسواق بخارى وأصبح هناك سوق خاص لهذا النوع من التجارة واشتهرت هذه التجارة في العصر الساماني نتيجة لغزوات الساميين لبلاد الترك والتي أسفرت عن وقوع عدد كبير من سكان تلك المدن أسري بيد الساميين حتى جني المشتغلون بهذه التجارة ثروة باهظة [5]. كما كانت هناك علاقات تجارية مع الصين من خلال استيراد السلع الكمالية مثل الياقوت الأحمر والصندل والأحجار الكريمة والحرير والمسك والعود وغيرها [10]، وكانت بخارى تستورد من بلاد الخزر الغري [6]، كما استوردت بخارى العاج والأبنوس من الهند والورق من الصين [7].

فضلا عن تجارتهم مع أهل البوادي وسكان السهول المحيطة ببخارى حيث كانوا يزودون أسواق بخارى بالعديد من المنتجات الزراعية والحيوانية مثل الماشية والجلود والفراء [11].

الصناعة:

تعد مدينة بخارى من المدن الصناعية القديمة حيث شهدت مدنها العديد من الصناعات لعبت دورا كبيرا في نشاطها التجاري وأصبحت مركزا مهما للعديد من الصناعات ولعل اهم تلك الصناعات التي اشتهرت بها مدينة بخارى هي صناعة الأقمشة والمنسوجات القطنية الفاخرة فضلا عن الصناعات الخشبية والغذائية. ويكتفي الإدريسي بالقول بأنه كانت فيها صناعات كثيرة وبساتين دون الحديث عن طبيعة تلك الصناعات، ويرجع السبب في ازدهار الصناعة في بخارى إلى عدة عوامل منها وفرة المواد الأولية الداخلة في الصناعة مثل القطن والصوف وغيرها. ومهارة الأيدي العاملة حيث كان سكان بخارى صناعا مهرة يفوقون نظرائهم من صناع المدن الأخرى.

المبحث الثالث

الطرق التجارية التي تربط بخارى بالمدن والبلدان المجاورة

بسبب الموقع الجغرافي المميز كانت بخارى هي أولى الكور الواقعة على نهر جيحون فضلا عن وقوعها على الطرق التجارية مع الصين مما جعلها محطة جارية وصناعية هامة. فقد شهدت بخارى أقدم بيت طراز كان ينسج بها البسط والسرادقات واليزديات والوسائد وسجاجيد الصلاة والبرود الفندقية من اجل الخليفة وكانت بخارى تدفع خراجها على شكل ثياب مصنوعة فكان يأتي من بغداد عامل خاص يأخذ من هذه الثياب ما يقابل خراج بخارى [5].

ولم يقتصر رواج صناعة بخارى على وفرة وجودة المواد الأولية الداخلة في الصناعة فحسب بل كان لمهارة الصناع وتخصصهم الدقيق في صناعة هذه الثياب الأثر الكبير في ازدهار تلك الصناعة فقد ذكر لنا النرشخي عندما تعطلت دار الطراز وتفرق من كانوا يعملون بهذه الصناعة ذهبوا الى أهل هذه الصناعة الى خراسان وعدوا الآلات اللازمة لها ونسجوا تلك الثياب فلم يكن لها ذلك الرواج[5].

ولم تقتصر مصنوعات بخارى على الملابس الفاخرة والمنسوجات الأخرى بل كانت هنالك العديد من الصناعات الأخرى مثل صناعة الحلوى المحشوة المصنوعة من الدوشاب، فضلا عن الصناعات الخشبية فتذكر الروايات التاريخية أن ملك بخارى (ماخ) كان يأمر النجارين والنقاشين، فكانوا ينحتون الأصنام من العام إلى العام ويحضرونها الى هذه السوق في اليوم المعين ويبيعونها ويشتريها الناس، بالإضافة الى الصناعات الطينية فكان طين جبل وركه في بخارى يستخدم في صناعة النورة والأواني فضلا عن استخدامه في عملية بناء المنازل [5]، [6].

الأسواق

لعبت الأسواق على مر العصور دورا اقتصاديا مهما في حياة الشعوب، فهي تعتبر مصدرا اقتصاديا لكثير من العاملين فيها فضلا عن أنها كانت ملتقى لأهل البلاد والبلدان الأخرى ليمارسوا عملية البيع والشراء مما يؤدي الى اختلاط في الثقافات وكسب العديد من المعارف، ولعل مدينة بخارى التاريخية كانت مشهورة بأسواقها المتنوعة ومحطة من اهم المحطات التجارية في التاريخ لوقعها على طريق الحرير القديم مما اكسبها موقعا تجاريا أدى الى نمو وتنوع بأسواقها وبضائعها ومنتجاتها.

وهنالك العديد من الأسواق منها ما كان يقام بصورة يومية لتلبي احتياجات السكان اليومية الضرورية مثل الطعام والخضروات ما شاكل ذلك، ومنها ما يقام يوما في كل أسبوع مثل سوق مدينة أفشه، احدى أعمال بخارى، وهنالك أسواق في أيام معينة مثل سوق يوم الجمعة - والذي لايزال يقام في الوقت الحاضر في بعض البلدان الإسلامية – وكان يقام مثل هذا السوق في مدينة زندنه، [5]. فضلا عن بقية الأيام فقد ذكر النرشخي في تاريخه عن بخارى أن في اسكجكت، سوق يقام في كل يوم خميس، وكذلك كانت هنالك أسواق كانت تقام في كل خمسة عشر يوما كسوق قرية ورخشه، فاذا كان في أخر السنة امتد الى عشرين يوما، وفي اليوم الحادي والعشرين يحتفلون بـ (النوروز)، ويسمونه نوروز الفلاحين، لذلك يحافظ فلاحو بخارى على هذا التاريخ ويعتمدون علية [5]. والبعض الأخر من الأسواق أو الصنف الأخر هي الأسواق الحولية والتي تقام في أوقات معينة من السنة وتستمر لعدة أيام ثم تنتهي مثل السوق الذي يقام في مدينة الطواويس [12].

وأود الإشارة هنا إلى أن هذه الأسواق التي كانت تقام في موعد معين من الأسبوع أو الشهر أو السنة لا تغني عن وجود الأسواق اليومية في تلك المدن التي تلبي احتياجات السكان اليومية، وإنما كانت لهذه الأسواق خصوصيا معينة، قد تكون لبيع منتج معين أو قد تكون ملتقى ثقافيا كما كان يحدث في أيام الجاهلية مثل سوق عكاظ وغيرها، وهي عبارة عن محافل دولية لتبادل التجاري والثقافي وهي أشبه ما يكون في يوما هذا كالمعارض التي تقيمها دولة معينة بمشاركة عدة دول وشركات [13].

وقد كانت هناك مجموعة من الأسواق في جنوب بخارى يصنع في حوانيتها النساجون، والإساكفيون، الخياطون، والحدادون، والنحاتون، والجوهريون، والمجلدون، والكاتبون، ومن اهم وأقدم الأسواق الموسمية في بخارى هو سوق ماخ وكان هذا السوق يقام مرتين في السنة لمدة يوم واحد في كل مرة، وكان يباع في هذا السوق من الأصناف ما تربو قيمته على خمسين ألف درهم في اليوم الواحد[5]. ومن خلال حجم التبادل وعمليات البيع والشراء التي كانت تتم في هذا السوق يتضح مدى انتعاش الجانب الاقتصادي في بخارى نتيجة انتشار مثل هذه الأسواق.

ويذكر النرشخي أن ملك بخارى (ماخ) هو الذي امر بإقامة هذه السوق وأمر النجارين والنقاشين، فكانوا ينحتون الأصنام من العام إلى العام ويحضرونها الى هذه السوق في اليوم المعين ويبيعونها ويشتريها الناس [5]. وهناك سوق في بخارى لبيع السلع المستعملة المعيبة من رقيق ودواب وغيرها ولا يسمح برد هذه السلع بعد البيع بأي حال من الأحوال وكان هذا السوق يقام في مدينة الطواويس ولمدة عشرة أيام من فصل الخريف، وكان يجتمع في هذا السوق التجار من مختلف البلدان وكان يعكس حالة اقتصادية لمدينة بخارى حتى قيل إن مصدر ثراء سكان المدينة من التجارة ولم تكن الزراعة مصدر ثروتهم، وقد وصفه الاصطخري بانه سوق عظيم ينتابه الناس من جميع أقطار ما وراء النهر [6]، [5].

وتوجد هناك مجموعة من الأسواق في اغلب مدن بخارى ولكل سوق من هذه الأسواق خصوصية معينة من حيث أوقات قيامه ونوع السلع المباعة وغيرها مثل سوق شرغ نسبة الى مدينة شرغ حيث كان يقام بهذه المدينة سوق في وقت معلوم من السنة ولمدة عشرة أيام في فصل الشتاء، وكان التجار ياتون الى هذا السوق من الولايات البعيدة للمتاجرة فيه وفي حالة قيام هذا السوق في أخر أيام السنة يمتد لمدة عشرين يوما، وفي اليوم الحادي والعشرين يحتفلون بعيد النوروز [14]، ولذلك اصبح هذا السوق من الأسواق المميزة في مدينة بخارى. واشتهرت مدينة بيكند احدى مدن بخارى بمركزها التجاري قبل الفتح الإسلامي فقد كان يقام في هذه المدينة في كل عام سوق لمدة يوم واحد ويجتمع فيه إعداد كبيرة من التجار من مختلف المناطق لا سيما البعيدة منها حتى ذاع صيته لما كان لهذا السوق من رواج تجاري في عرض بضائع مختلفة اشتهرت بها مدينة بيكند [15].

التعاملات النقدية

تعد المعاملات النقدية من العمليات الاقتصادية الهامة، وتعتمد بشكل أساسي على النقود والقيمة النقدية، وتعد النقود هي الوسيلة الأساسية التي تستخدم في المعاملات النقدية، وهي تتمثل في العملات المختلفة والأوراق النقدية والمسكوكات النقدية.

تعتبر الدراهم من أهم العملات التي استخدمت في الإسلام، حيث تم تداولها في العديد من الدول الإسلامية عبر التاريخ، فقد تم استخدام الدراهم في العصر الأموي والعباسي، وكانت تحمل شعارات وصوراً مختلفة تعبر عن العصر الذي تم استخدامه فيها، ويشير البعض إلى أن الدراهم تمثل رمزًا للثقة والاستقرار الاقتصادي في الدول الإسلامية، حيث كانت تعد وحدة قياس العملة والتجارة في ذلك الوقت، وكان استخدام الدراهم في الإسلام جزءًا من العراقة الإسلامية، حيث تتم الإشارة إلى أنها من العملات التي تم تداولها منذ القرن الأول للهجرة، واستخدمت في مختلف الدول الإسلامية، كما أن الدراهم تمثل رمزًا للتجارة والتعاملات الاقتصادية في الدول الإسلامية وبالتالي، يمثل تاريخ الدراهم في الإسلام جزءًا من تاريخ الاقتصاد الإسلامي ويعكس الحركة الاقتصادية والتجارية التي شهدتها الدول الإسلامية خلال تلك المدة. والدرهم كلمة فارسية معربة، ويقال أنها يونانية قد استخدمت قبل ظهور الإسلام لا سيما في شبة الجزيرة العربية، والدرهم مفرد والجمع دراهم [15]، [16]، وقد ذكر الله في القران الكريم الدراهم في قولة تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [17]. وهذه الدراهم التي منها الفضيه والذهبية وغيرها الى جانب الدنانير، وهي وسيلة للتعامل التجاري وهي المستخدمة عادة في عمليات البيع والشراء.

ويعود تاريخ دراهم بخارى الخاصة الى ما قبل الإسلام حيث يروى أن اول من ضرب الفضة ببخارى ملك كان اسمه (كانا بخار خداه) وكان ملكا على بخارى ثلاثين عاما وكان يتاجر ببخارى بالكرباس والقمح فأخبروه بأنهم ضربوا الفضة في الولايات الأخرى فامر أيضا بان تضرب النقود الفضية ببخارى من خالص الفضة وان تنقش عليها صورته بالتاج، وكان هذا في زمن الخليفة أبي بكر الصديق [5].

أما في العصر العباسي وتحديدا في عصر الخليفة هارون الرشيد (170-193ه/786 -808م)، فقد سكت دراهم خاصة لبخارى، وكانت تعرف هذه الدراهم بالدراهم الغطريفية [18]، نسبة الى والي خراسان في تلك الحقبة الغطريف بن عطاء، وهي دراهم من حديد وصفر وغير ذلك من جواهر مختلفة قد ركبت فلا يجوز هذا الدرهم الا في عمل بخارى وحده [6]، وتعتبر هذه العملة عملة محلية فهي مختصرة على مدينة بخارى ولا يتعدى التعامل بها خارج هذه المدينة وأعمالها.

ويبدو أن الغرض من ذلك كان الهدف منه الحفاظ على اقتصاد مدينة بخارى وعدم خروج ثرواتها خارج المدينة فقد جاء أشراف واعيان بخارى الى الوالي وقالوا له (لم تبق لنا فضة بالمدينة فليأمر أمير خرسان بان تضرب لنا نفس السكة على نحو ما كانت فضة بخارى قديما، وينبغي أن تكون الفضة بحيث لا يخرجها أحد من أيدينا ولا تخرج من بلدنا حتى نتعامل بها فيما بيننا) [5].

ويذكر السمعاني أن الدرهم الغطريفي ببخارى وما وراء النهر نسب الى غطريف ابن عطاء لأنه عندما قدم أميرا على خراسان في سنة خمس وسبعين ومائة سأله أهل بخارى أن يضرب لهم درهما لا يحمل الى موضع ولا يروج في بلد سواه، فضرب درهما فيه عدة جواهر نفيسة واذا سبك لا يحصل منه شيء، فقد كان يتكون من ستة أشياء هي الذهب والفضة والمسك والقصدير والحديد والنحاس، وكان عامة الناس يسمون هذا الدرهم (غدريفي) [19]، [5].

ويذكر أن هذه النقود جاءت سوداء اللون لأنها خليط من عدة معادن وكانت تختلف عن الدرهم السابق الذي كان مصنوعا من خالص الفضة، فكانوا يأخذونها مكرهين وكانت قيمة الدرهم الفضي الخالص تساوي ستة دراهم غريفيه واخذ السلطان بهذه القيمة حتى راجت هذه الدراهم، ألا أن السلطان عمل على دعم الدرهم الغدريفي وذلك بقيامه بإلزام الناس دفع الخراج بالدرهم الغدريفي، فلما عز هذا الدرهم وندر في الأسواق أصبح يعادل الدرهم الفضي، وأخذت القوة الشرائية لهذا الدرهم ترتفع شيئا فشيئا بمرور الوقت حتى أصبح فيما بعد سبعين درهما غدريفيا يعادل مائة درهم من الفضة، أي زاد على الدراهم الفضية، وكان المثقال من الذهب الأحمر بسبعة دراهم ونصف درهم غدريفيه [5].

وقد كان أهالي بخارى يتعاملون بالدراهم الغدريفية في كتابة عقود الزواج وفي دفع مهور النساء وكذلك في شراء المنازل والعبيد، ولم يقتصر التعامل النقدي في تجارة بخارى على الدراهم بل ضرب السامانيون أثناء حكمهم لبلاد ما وراء النهر واتخاذهم بخارى عاصمة لدولتهم البشيزيات العدلية (الدوارق) وهي عملة صغيرة ورقية من النحاس الأحمر [5]. كما ضرب السامانيون دراهم فضية سميت بالمحمدية نسبة الى أخ غطريف ابن عطاء، وهي دراهم سوداء اللون كان التعامل بها مختصرا على المعاملات الخارجية، فكانت تدفع هذه الدراهم للجيش الذي يتوجه الى الحرب وكانت تفوق الدراهم البيض في القوة الشرائية[6].

وكانت هذه الدراهم المحمدية تسك من مجموعة من المعادن، وكان خراج فرغانة وكش والصغد واشروسنة يحصل بتلك الدراهم، أما الدراهم المسيبية والتي تنسب الى مسيب أخي غطريف التي كان يحصل بها إخراج الشاش وخجنده [1]، [9]. أضف الى ذلك هنالك نوع أخر من الدراهم كان متداولة في مدينة بخارى تسمى الدراهم السمرقندية أو الدراهم الصفر وكان مقدارها ستة دراهم بدانق [20].

الصيرفة

الصيرفة مصطلح عربي يشير إلى صرف العملات وممارسة تبادل العملات لها تاريخ طويل في التمويل الإسلامي، تم تقديمه لأول مرة من الأيام الأولى للإسلام، وتم التأكيد على أهميته في القرآن والحديث، يذكر القرآن أن "الله أباح التجارة وحرم الربا" (مما يبرز أهمية التجارة في الإسلام، وقد ورد عن الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآلة وسلم) تبادل العملات في تعاليمه، وكان معروفًا أنه أجرى مثل هذه المعاملات). وكانت مهنة الصيرفة من المهن المرتبطة بالأسواق وكانت مدينة بخارى مركزا تجاريا وسوقا رئيسيا، لذلك أوجب وجود مثل هذه المهنة لدى سكان بخارى فكانت يستبدل في مدينة بخارى مجموعة من عملات المناطق القريبة والمجاورة، حتى ليسمع هنالك المثل القديم (اشد يقظة من سمسار بخارى)، وهو تعبير عن مدى يقظة سكان بخارى ودقتهم في استبدال العملات وقدرتهم في الاشتغال بالأموال [5].

ولم يقتصر عمل الصراف على تبديل العملات وإنما كان يقوم بأعمال أخرى تشبه الى حد كبير أعمال المصارف في وقتنا الحاضر فقد كان التاجر يودع أمواله لدى أحد الصرافين ويأخذ مقابلها أوراقا أو رقاعا عليها ختم الصراف يسجل فيها القيمة المالية لهذه الورقة بحيث يستطيع التاجر شراء بضائع بقيمة هذه الورقة ويعطيها للبائع ويذهب البائع بدوره الى الصراف لغرض اخذ النقود المنصوص عليها في تلك الرقاع [21]. وشيئا فشيئا توسع عمل الصرافين فاخذوا يشتغلون بالتسليف ويقبلون الودائع ويتوسطون بين الطرفين بضمان كل منهم الأخر وكانوا يأخذون الفضة والذهب من الناس لصكها دافعين لأصحابها نقودا ما تساويها بالقيمة الاسمية فكانوا يستفيدون من الفرق بين القيمتين وقيل أن والد ابن سينا الفيلسوف المشهور في بلاد ما وراء النهار كان احد المشتغلين بالصرافة في عهد الأمير نوح بن منصور الساماني، وكان سوق الصرافة من الأسواق المهمة والمشهورة في بخارى أيام الدولة السامانية.

الخاتمة

بعد الحمد والثناء على الله تعالى لإتمام النعم، انهينا بحثنا عن الجوانب الاقتصادية في كتاب تاريخ بخارى للنرشخي متوصلين الى نتائج عدة منها: -

1. تبين لنا أن دراسة المصادر التاريخية القديمة وتحليل محتواها يعد دراسة بالغة الأهمية لاحتواء هذه المصادر والكتب على العديد من المعلومات القيمة ويجب تسليط الضوء عليها ودراستها
2. لعب الجانب الاقتصادي دورا مهما في تاريخ مدينة بخارى ونشاتها كونها ذات طابع تجاري وجل نشاط سكانها ينحصر في عملية تبادل السلع والمصنوعات المحلية.
3. أن لأسواق بخارى من أهمية تاريخية واقتصادية، فقد كانت هذه المدينة مميزة بأسواقها المتنوعة منها اليومية ومنها الأسبوعية ومنها السنوية فضلا عن تنوع كبير في عروض التجارة في تلك الأسواق.
4. تباينت السلع بين ما ينتج من محاصيل زراعية ومنتجات حيوانية، وكانت لتلك المحاصيل شهرة خاصة ومذاق مميز فضلا عن المنتجات الحيوانية المتمثلة بالفراء والدهون وغيرها.
5. كما امتازت هذه العروض بالمنتجات الصناعية ولعل أول تلك المنتجات هي المنسوجات القطنية والصوفية فكانت الثياب الزندنجية ذات شهرة واسعة وذات قيمة مرتفعة جدا مقارنة بما كان ينتج في بقية الأقطار، وكانت هذه الثياب من الجودة بحيث اقتصر على لبسها الملوك والأشراف وغيرهم.
6. المهارة العالية لسكان بخارى في صناعة المنسوجات حتى أصبحت تلك المنسوجات من افخر وأجود المنسوجات في العالم آنذاك.
7. وكذلك اتضح لنا أن مدينة بخارى ذات الطابع التجاري كانت تمارس نشاطها التجاري المتمثل بعمليات البيع والشراء بعملة محلية اقتصرت بمدينة بخارى، فمنذ اقدم الأزمان وحتى في العصر الإسلامي كان الدرهم التجاري يختلف عن الدراهم الأخرى حتى اصبح يضاهي الدرهم الفضي بل فاق عليه وذلك يرجع الى القوى الاقتصادية لتلك المدينة.

المصادر

[1] أبي القاسم ابن حوقل، صوة الأرض، بيروت، دار صادر، (1983م).
[2] محمد بن عبد الله بن محمد ابن بطوطه، رحلة بن بطوطة، بيروت، دار التراث، (1388هـ/1968م).
[3] ابن عبد الله الرومي ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار أحياء التراث العربي، (1979م).
[4] زكريا ابن محمد بن محمود القزويني، البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، (بلا تاريخ).

[5] أبي بكر محمد بن جعفر النرشخي، تاريخ بخارى، المجلد 2، (تحقيق: ايمن عبد المجيد، ومبشر نصر الله، المحررون)، دار المعارف، (بلا تاريخ).
[6] أبو إسحاق إبراهيم محمد الفارسي الاصطخري، المسالك والممالك، بيروت، دار صاد، (2004م).
[7] محمد عبد العظيم الصوفي، مركز التجارة في أسيا الوسطى، القاهرة، ندوة طرق التجارة العمية عبر العالم العربي، (2008م).
[8] احمد بن محمد بن إسحاق ابن الفقيه الهمذاني، البلدان (الإصدار ط1)، بيروت، عالم الكتب لطباعة والنشر، (1416هـ/ 1996م).
[9] شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد المقدسي البشاري، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. القاهرة، مكتبة مدبولي، (1411هـ/1991م).
[10] عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، البرصان والعرجان والعميان والحولان، قسم التراث العربي، (1410هـ/1981م).
[11] فاسيلي فلا ديميروقتش بارتولد، تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي، قسم التراث العربي، (1401هـ/1981م).
[12] سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الشاملة، (بلا تاريخ).
[13] مرتضى رواندى، تاريخ اجتماعي ايراف، تهراف، (1372 ك).
[14] مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، (١٤٢٣ هـ).
[15] أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح (الإصدار ط4)، لبنان- بيروت، دار العلم للملاين، (1407هـ/1987م).
[16] محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، الكويت، دار الرسالة، (1402هـ/1983م).
[17] القران الكريم، سورة يوسف، الاية(20).
[18] عز الدين الجزري ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت، دار صادر، (1400هـ/1980م).
[19] عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني، الأنساب (الإصدار ط1)، بيروت، دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع، (1408هـ/1988م).
[20] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد ابن فضلان، رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة (المجلد ط1)، دار السويدي، أبو ظبي، (2003م).
[21] حسن مؤنس، عالم الإسلام، القاهرة، الزهراء للأعلام العربي، (1989م).